باب المقالات

الحياة الزوجية

(٦)

ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون* (سورة الروم ٣٥—٢٠)

الركن الثالث من أركان هذه الحياة — الرحمة

تقدم ان الطور الاول من أطوار هذه الحياة خاص بالزوجين وهو سكون نفس كل منهما الى الآخر ذلك السكون الذي لا نظير له بين سائر المتحابين لغير اتحاد الزوجية وهو وجدان من وجدانات النفس لا يعرف كنهه الا الزوجان اللذان أحسنا الاختيار فتعارف الروحان وتمازج النفسان ، فكانا حقيقة واحدة لها صورتان ، وأن الطور الثاني يشاركهما فيه غيرهما وهو الود الذي تحدثه المصاهرة بين عشيرتي الزوجين الوديدين ، ونبين في هذه المقالة ان الطور الثالث مشترك بين الزوجين وما يرزقان من الولد

الرحمة ضرب من ضروب وجدان النفس له مثار في النفس غير مثار السكون الى المحبوب والأنس به، وغير مثار مودة المشارك في المعيشة والمشابك في المصلحة، ذلك الذي يثير وجدان الرحمة ، ويهز عاطفة الرأفة والشفقة، هو ما ترى في غيرك من ضعف أوسقم ،أوحاجة يصحبها ألم،وهذا هو ملاك الحياة الزوجية عند حدوث الأمراض والادواء،وعند ما تذوي غصن الشبيبة هاتيك الأهواء ، ولولم يودع الله تعالى الفطرة الا سكون الزوج لملامسة الزوج ومودة كل منهما للآخر للتعاون على المصالح والمنافع التي هي قوام معيشتها لكانت الحياة الزوجية نعيماً في الشباب بؤساً في الشيخوخة ، سعادة في السراء ، شقاوة في الضراء ،يتمتع كل من الزوجين بصحة الاخر ونشاطه،و بسطته واغتباطه، حتى اذا لسعت أحدهما حمة الضر ،أوعضته ناب الفقر ،أونالت السن من فتائه وجدته، مالم تنل الناب من ثرائه وجدته، استحال سكون الآخر اليه اضطراباً منه، وانقلبت مودته اياه مقاطعة له، و بالذلك لو كان من نقص عظيم ،ينافي خلق الانسان في أحسن تقويم،

لاتحسبن هؤلاء الذين يملون أزواجهم عند السقم أو الهرم فلا يرحمون لهن ضعفاً ، واللواتي يملن أزواجهن في الكبر أو الفقر فلا يحفظن لهم عهداً ، قد سلمت لهم فطرة هذا النوع الكريم ، الذي خلقه الله في أحسن تقويم ، كلا بل أفسدت الشهوات فطرتهم ، ونكست الأهواء خلقتهم ، فلهم من الانسان صورته وشكله ، لا روحه ولا عقله ، ولا كرمه ولا فضله ، بل صاروا أعدى للإنسان من الشيطان ، وأضرى بعضرته من سباع الحيوان ، وأي خير يرجوه الإنسان في نوعه ، أو الأمة في خاصتها ، ممن لا خير فيه لمن انفصل لأجله عن أمه وأبيه ، وأخته وأخيه وعشيرته التي تؤويه ، واتصل به على عهد الله وميثاقه في الفطرة البشرية ، والشريعة السماوية ، فكان معه روحاً حلت في جسمين ، وهيولى تجلت في صورتين ، ثم لم يلبث بعد فراغ حظه منه ، أن انفصل عنه ، لا يرحم له ضعفه ، ولا يعطف عليه عطفه ، ؟ أليس المشارك له في النوع والصنف ، أولى بهذه القسوة وهذا العنف ، ؟ بلى ان هؤلاء الذين استعبدتهم الأثرة ، واسترقتهم « الأنانية » ، أعداء الأهل والأقربين ، بل أعداء البشر كلهم أجمعين ،

هذا الضرب من فساد الفطرة هو في الرجال أكثر منه في النساء والعدوى فيه تفعل فعلها في البيوت تسير سير البريد من بيت الى آخر ولا آسي يأسو هذا المرض الذي كاد يكون وباء . وأنى يوجد الأساة أو تنتفع الأمة بمن عساه يوجد منهم وطب القلوب مهجور وأهله كأهل طب الابدان منهم العالم العامل ومنهم الدجال المحتال وقد مضت سنة الكون بأن الأمة في طور ضعفها وضعتها تدين للدجالين المحتالين ، وتنفر من العارفين الناصحين ، لذا ترى مدعي طب الأرواح عندنا من أكبر الأعوان على تخريب البيوت فمنهم الذين جعلوا طب القلوب الظاهر وسيلة لإعانة كل زوج على قهر الآخر بالتقاضي كبعض القضاة والمحامين ، ومنهم الذين جعلوا طبها الباطن ذريعة الى استحلال المحرمات بالفعل اعتماداً على شفاعة الشافعين ، والانتساب بالقول الى المشايخ الميتين ،

فطر الله تعالى قلوب البشر على الرحمة ليتراحموا فلا يهلك فيهم العاجز والضعيف ، وكل احد عرضة لاستحقاق الرحمة في يوم من الأيام ، وجعل سبحانه حظ الوالدين والزوجين من الرحمة أرجح ليعنى بكل فرد من الناس أقرب الناس

منه عند شدة الحاجة الى العناية والكفالة فالزوج لزوجه عند الضعف في المرض أو الكبر، كالوالدين لولدهما عند ضعفه في الصغر، بل تجد المرأة أرحم ببعلها في مرضه أو كبره من أمه لو وجدت وتجد الرجل أرحم بسكنه في مرضها أو كبرها من أبيها لو وجد اذا كانت الفطرة سليمة، فان لم يكن كل من الزوجين أرحم بالآخر في كبره من والديه فانه يقوم مقامهما اذ لا يضعف كل من الزوجين ويحتاج الى الرحمة الا بعد موت الوالدين في الغالب فان مرض وهما في صحتهما فانهما يكونان بعيدين عنه لا يسهل عليهما ترك بيتهما ومن عساه يكون فيه من محتاج الى رحمتهما لأجل لزام ولدهما الكبير المتزوج. فظهر ان كلا من الزوجين في حاجة الى رحمة الآخر به عند ضعفه لا يقوم بها سواه من الأقربين أو المستأجرين مقامه فيها

ليست الأريحية في سكون الزوج الى زوجه عند داعية المسيس ولا أريحية مودته ومودة أهله في المعاشرة والمعاملة بأكبر من الأريحية التي يجدها لرحمته به وحنوه عليه في حال الضعف، فإن الانسان يشعر بالارتياح من عناية غيره به عند الحاجة ما لا يشعر بها عند الاستغناء، فالضعفاء والمرضى والملقون يكبرون من أمر الوفاء والاعتناء، ما لا يكاد يشعر به الاقوياء والأصحاء والأغنياء، « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وان من طغيانه أن يعتقد أن كل من يحفل به ويعنى بشأنه فانما يفعل ذلك لأجل نفسه لا لأجله هو لان الناس في حاجة اليه وهو ليس في حاجة اليهم، وقد يبلغ به الطغيان الى ادخال زوجه وولده في هذا الحكم فاذا تحول مدّ طغيانه الى جزر بالمرض أو الحاجة رق قلبه ولطف شعوره وكان أعدل في الحكم وأقرب الى عرفان قدر النعمة والشكر عليها

يسمون مسألة الزواج مسألة « مستقبل الانسان » وان كنت تجد في الاغرار من لا يفكر عند ارادة التزوج بمستقبله مع من يختاره زوجا له فانك لا تكاد تجد من لا يعبأ بهذا المستقبل اذا ذكر به فأعمل فكره فيه الا ما يكون من بعض المترفين اذا فتن أحدهم بجمال امرأة يود أن يقضي منها وطرا ثم لا يبالي ما يكون بعد ذلك ومثل هذا اذا ملّ طلق ولا تكاد تجد امرأة ترضى بالتزوج بمثله على أن هذا النوع من الازدواج، هو أشبه بالاستئجار أو البغاء منه بالزواج، وانما

الزواج الشرعي الطبيعي ما كان عن ارادة الاشتراك في الحياة مدة الحياة والا كان متعة بالغش والمخادعة ولا أرى الشيعة يدينون بجواز هذا الضرب من المتعة لان الغش محرم بالاجماع لاخلاف في ذلك بين سني وشيعي. واذا كانت مسألة الزواج هي أعظم مسائل مستقبل الانسان الخاصة أفلا يكون من أعظم الشقاء أن يبدأ أمر الزوجين بالسكون والود في السراء، وينتهي بالاضطراب والتخاذل في الضراء، يشكر أحد الزوجين للآخر عند إمكان استبداله أو الاستغناء عنه، ويكفره أحوج ما كان اليه، أي عاقل يرضى بهذه الخاتمة السوءى اذا علم بها أو ظن أن ستكون؟

لاشيء يخفف أثقال الفقر وأوزاره عن كاهل الرجل يحمله مثل المرأة التي ترحمه في فقره فتظهر له الرضى والقناعة ولا تكلفه ما تعلم ان يده لا تنبسط له فما بالك اذا كانت ذات فضل تواسيه به، ولا شيء يعزي الانسان عن مصابه في نفسه وغيره مثل المرأة للرجل والرجل للمرأة اذا ظهرت عاطفة الرحمة في أكمل مظاهرها فشعر المصاب بأن له نفساً أخرى تمده في القوة على مدافعة هذه العوارض التي لا يسلم منها البشر، واعكس الحكم في القضيتين، يتجلى لك وجه الصواب في الصورتين،

اذا كان لركن الزوجية الاول وهو السكون المعهود تأثير في الثاني وهو المودة فلا ريب أن الركن الثالث وهو الرحمة يكون أثرا للركنين قبله أو فرعاً لهما فعلى قدر السكون والمودة بين الزوجين في النعماء، تكون الرحمة بينهما في البلاء، لأن مصاب الوديد المحبوب يعيد للنفس ذكرى جميع حسناته، وطيب أيامه وأوقاته، ويمثلها في أبهى حللها، ويعرضها على النفس في أجمل معارضها، (المعرض هو الثوب الذي تجلى فيه العروس) فيخيل الى المحب ان تلك الحسنات واللذات قد اجتمعت وان المصاب يحاول أن يشتت شملها، ويقطع حبلها، فهو يواثب لذاته المجتمعة في شخص محبوبه، ويحاول سلب منافعه باغتيال نفس وديده، فمن أراد أن يحسن مستقبله في هذه الحياة فليجتهد أولا في حسن اختيار الزوج ثم ليخلص له المودة ثانيا ليتمتع بوفائه أولا وآخرا وباطنا وظاهرا

ما أجهل الرجل يسيء معاشرة امرأته وما أحمق المرأة تسيء معاشرة بعلها، يسيء أحدهما الى نفسه من حيث يسيء الى الآخر فهو مغبون غالباً ومغلوباً وما رأيت

ذنباً عقوبته فيه كذنب اساءة الزوج الى الزوج بل أرى العذاب يضاعف في الدنيا على ذنب الزوجية فيكون زوجاً لا فرداً وكل ذنب له عقوبة في النفس أو فيما يتعلق بالنفس تكون أثرا طبيعياً له الا ذنب أحد الزوجين في مفاضبة الآخر فانه هو نفسه عقوبة لنفس مقترفه يؤلمها ويمضها ثم انه يلد لها عقوبة أو عقوبات أخرى تكون أثرا له كسائر الذنوب . ولكن أثر ذنب الزوجية ليس كآثار غيره لأنه هو ليس كغيره فكبير الآثار وصغرها تابع لحال المؤثرات

أنهاك أيها المغرابة أن تسارع الى الزواج مهما تمادت بك الغربة الا بعد حسن الاختيار، وأنهاك أيتها الأيم وأولياءك أن تجيبوا خاطباً الا بعد التروي في الاختيار، وأعظكما اذا أنتما تزوجتما فلم تجدا ذلك السكون النفسي كاملا، وذلك الود الطبيعي مواصلا، أن يتحبب كل منكما ويتودد الى الآخر ما استطاع ويجعل أكبر همه في هبته واستيهابه قلبه لتحسن الحال، ويرجى حسن العاقبة في المآل، فان عجزا عن ذلك بعد الإخلاص فى طلبه، والجد في إدراكه، فليتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله عليماً حكيما

اذا رزق الله الزوجين الولد تنمو به بينهما المودة والرحمة ويكون هو منبعاً لرحمتها فاشتراكهما في هذه الرحمة الوالدية التي لها مصدر واحد ومورد واحد يؤكد الصلة بينهما فبيناهما معتصمان بحبل الزوجية الذي هو من أقوى الروابط الحيوية اذا هما معتصمان بحبل الوالدية الذي هو أقواها على الاطلاق وكيف لا يكون كذلك ورابطة الزوجية هي طاقة من طاقات حبل الوالدية اذ الوالدان هما الزوجان قد انتجا فكملت حيويتهما وجاءت بثمرتها .

كل واحد من الوالدين يشعر من حيث هو والد بما يشعر به الآخر ويملكه الوجدان الذي يملك الآخر وتتولد فيه الآمال التي تتولد في الآخر ويكون جده وسعيه لمثل ما يجد ويسعى له الآخر ويرى سعادته عين سعادة الآخر، أرأيت هذا الاتحاد في هذه الشؤون كلها اذا صافح اتحاد الزوجية وعانقه كيف يكون حال المتحدين في تراحمهما وتعاطفهما بل في تمازجهما وفناء كل منهما في الآخر؟ لو كانت المسألة نظرية محضة لحكم الناظر فيها مع سلامة الفطرة بأن الحياة الوالدية

هي كمال الحياة الزوجية وان هذا الكمال هو الذي ليس بعده كمال فالوالدان هما أسعد الناس بنفسهما وولدهما لا يتصور أن يقوي الزمان على شت شملها ، أو نكث فتلها ، وإن اتحادهما هذا الأكبر عون لهما على أحداث الزمان ، وأفعال الطبيعة في الانسان .

ما كان لسليم الفطرة الذي يعيش بمعزل عن فاسدي الأخلاق معتلي الطباع أن يتخيل وقوع نزاع يتمادى بين الزوجين الوالدين بله المفاضبة التي تفضي الى المباغضة ، والمناصبة والمناهضة ، على نحو ما يكون بين أصحاب التراث الموروثة ، والاضغان المخبوءة ، كما يقع الآن على مرأى منا ومسمع وألمعنا اليه من قبل . لكن الفساد قد بلغ من هذه الأمة مبلغاً لا يصدقه عاقل ، ولا يتخيله فاضل ، الا أن يرى بعينه ، ويسمع بأذنه ، وقد أحصى الأستاذ الامام عليه الرحمة قضايا سنة في احدى المحاكم الأهلية فبان له أن ٧٥ قضية منها كانت بين الأقربين فما بالك بقضايا المحاكم الشرعية ولعل ٩٩ منها في المائة بين الازواج والوالدين

سبق القول بأن الحياة الزوجية هي أصل الحياة الوطنية والحياة الملية فاذا كانت الأولى سعيدة كان ذلك أصلا في سعادة الأمة واذا كانت شقية كان ذلك علة لشقاء الأمة لان الأمة مؤلفة من هذه البيوت فمن لا خير فيه لأهله لا خير فيه لأمته ، كما علمت من حديث «خيركم خيركم لأهله» فما دامت حياتنا الزوجية مختلة معتلة فلا يرجى لنا أن نحيا حياة ملية طيبة . وان هذا الشقاء في الأمة والبيوت هو في المسلمين أثر من آثار ترك عقائدهم وآدابهم الدينية ، وتقطيع روابطهم الملية ، فخسارتهم لسعادة الدنيا دليل على أنهم — ان لم يعودوا ويتوبوا — سيخسرون سعادة الآخرة وذلك هو الخسران المبين

نقف عند هذا الحد في بيان أركان الزوجية الثلاثة التي نطقت بها الآية الكريمة في السورة التي ورد فيها أن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فقد شرحناها بما أملته علينا الفطرة ، وهدتنا اليه الفكرة ، اذ هي التي أرشدتنا الى ذلك بختامها «ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»